وجوه من الشرق

الحب الصاعد في نفس ابي شبكه

بقلم ميشال حايك

« لي الى الله في حنانك مرقا
ةٌ ولي صوتك الشجيّ سلالمْ ...
سوف تمحى رؤىً وتنهار احلا
مٌ وتبقى منك وحيٌ دائمْ ... »
(الى الابد)

نحن في سنة ١٩٤٠ . كنت حينذاك تلميذاً في معهد الرسل في جونيه . وقادتنا النزهة الى الذوق ؛ وعلى احدى دروب تلك البلدة مرّ بنا شاب نبّهني اليه احد رفاقي مشيراً باصبعه : « هذا هو الشاعر الياس ابو شبكة . » وما حفظت في ذاكرتي منه سوى لونٍ اسحم ومشيةٍ متوترة . ما اذكره الا كما يذكر القريب بلداً بعيداً مرّ فيه ، او كما يذكر الاعمى خيطاً من النور مشلولاً . وانطبعت فيّ تلك التقاطيع القفيرة وما تزال مع الزمان تكتسب سراً مجدداً وستظل تحوم فوق نظري حتى يخبو فيه الضياء تحت الانطباقة الاخيرة .

ما رأيت في تلك الفرصة المسرعة غير شكل ابي شبكه الخارجي. واراني الان بعد عشر سنوات اجلس في غرفة موحشة كنفس ذلك الشاعر واقلب صفحات آثاره فارى ، لا رسمه الذي اضمحل فاصبح تراباً في قبر ، بل ارى روحه الفتيّة البيضاء لا ينال منها الفناء منالاً وتتكسر دونها الايام والليالي ، لانها ابعد من ان تطمس جمالها غبرة السنين . وما ذاك الا لان ابا شبكه باقٍ ، ووجودٌ بيننا يتكلم الينا فتصغي اعماقنا الخاصة الى كلام الحب المتقطر من شفتيه الملتهبتين : الحب الهاوي ، والحب الصاعد .

الحب مفتاح حياته وموته ومدخله الى الخلود . والحب كلمة معقودة النبرات في فم الانسان منذ كان ، يحاول النطق بها فيكون نصيبه الفشل ،

اذ تعجزه الاصوات والحروف وتبقى تلك الكلمة جرساً خفياً يرنّ في الاعماق فلا تجمعه الظنون ولا تجسّده المقاطع المادية الفانية . وما اكثر الذين اعتزموا الحب فما وجدوا سوى ذات مبعثرة ضائعة تبحث عن ذاتها : انهم الخطأة . وما اقل الذين غرّقوه في الحب العظيم ، في الله ، فوجدوه حقيقةً اسمى واطهر واكثر شمولاً : انهم القديسون .

وابو شبكه هو من الاثنين : هو مجرم وبار ، هو خاطىء وقديس كانت خطيئته طريقاً اوصله الى القداسة في الحب ، اوصله الى نكران ذاته ، وهل القداسة سوى نكران ذات متواصل ؟ اذا كان هوى حتى اسفل الوادي فلانه احب الصعود الى القمة الحاذية . وكم من الذين لم يتعرّفوا الى حرية القمم الا بعد ان يكونوا تمرّغوا في السهل وجرّحوا ايديهم وارجلهم بين صخور الوهاد الشائكة !

من هؤلاء كان ابو شبكة . فهو طاهر حتى في خطيئته لان الخاطىء كما حددته تلك القديسة الساذجة برناديت ، هو الذي يحب الشر . وابو شبكه ما احب الشر ابداً . انه ما كتب ليفسد اخلاقاً او يبلبل طهارةً . بل كان مخلصاً لواقعه عبّر عنه تعبيراً صادقاً واندفع الشعر على فمه دماً جارياً من قلبه ، أكان ذلك القلب ملوثاً بالاثم او مشتاقاً الى السماح ، او مستقراً في الطهارة . ان ادب ابي شبكه اعتراف ، فيه من اعترافات الفرد دي موسه (de Mus̈set) ومن اعترافات القديس اغوسطينوس الشيء الكثير : فجور وطلب مغفرة ، مرارة وتقوى ، استسلام الى الاثم وانفتاح على الخير .

ما اذنب نظير موسه ولا طهُر نظير اغوسطينوس ولكنه بقي على الدرب بين الاثنين . لم يقنع بالوادي الموجع الموعر نظير الاول ، ولم يبلغ القمة نظير الثاني . لقد ظل متأرجحاً بين الوادي والقمة ، بين الاثم والقداسة ، بين الجحيم والنعيم فطال مكوثه في مطهر العذاب . وهذا ما يجعله قريباً من القلوب . ففي كل انسان هذا المثنى من المتناقضات . ولذلك نستقبله ونتعرّف فيه بعض الاحيان الى ذاتنا اذ انه يعبّر عن هذا النزاع النفساني المستمر في داخلنا بين ارادتين متعاركتين : ارادة الخير وارادة الشر . واذا

به حين يروي قصته الشخصية ، يقفز ، ككل شاعر انساني حق ، وراء حدود الذات الضيقة ، ليجتمع بهذا المجرم والقديس ، بهذا الحيوان والملاك اللذين يهجعان في قرارة نفس كل انسان .

شعر ابي شبكة كروحه قلق متألم : تارةً يتزو فيكاد يجعل الحلم حقيقةً مجسدة فتشيع الغبطة في كلماته وتهدر السماحة والغفران بين مقاطعه ، صواحب الجرس الخفيّ الناعم ، وطوراً يصطدم بالواقع المرير القلّاب فاذا الشعر قطع من روح متحطمة ممزقة ، فتبكي السطور وتنتحب القوافي .

شعر ابي شبكة قصة قلبه المجسّدة في حروف وكلمات : تارةً تنعم الليالي عليه بصفو لقاء واجتماع مرقوب بين غفوة الزهر وارتعاشات الدوالي المخمورة ، فاذا الشعر فناء في الحبيب ونسيان لكل ما يذكّر بغير حمرة خدين ولهبة انفاس ، ولكل عين سوداء تطلب سواءاً :

لاحسَّ في الدنيا لأنسانِ
فالناس كالاشباح قد راحوا
ولم يزل الّا خيالانِ
حيّين ، والباقون اشباح ... ١)

وطوراً الم فراق ووحشةٌ مريعة وعزلة جوفاء . فاذا الشعر قطرات دموع وسبحٌ في يمّ ذكرى تفرّ الحقيقه منها كالحلم الشرود :

هي هذي مشاهد الامس ، لكن اين زهوي ، واين قلبي الحقيقي ؟ ٢)

ما اعرف شاعراً من بين شعرائنا اللبنانيين اخلصَ لواقعه في شعره كما اخلص ابو شبكه . واذا كان اصدق الشعر أكذبه فما أبعد ابا شبكه عن الشعر الحقيقي الصادق . انه لم يكذب في شعره على حياته بل عاشه فيها وعاشها فيه :

هم يشتون بشعرهم اما انا فبأدمعي
بدمي باعراقي بروحي بالشباب الممرع ٣)

١) نداء القلب .
٢) الالحان .
٣) نداء القلب .

لم يكذب لانه احب حقيقةً والحب دائماً صادق حتى في الوحلة لانه صورة الله فينا . وان نحن لوثناها في المستنقعات والبؤر الفواجر فانها تظل ، وإن مشوهةً ، صورة الله الذي ما أبدعنا الأ عن حب وما ارادنا الا للحب القويم .

وابو شبكه ادرك ذلك حين هتف في اخر « افاعيه » ، كتاب الحب الآثم ، صارخاً :

ان في الحب صورة الله لكن اين في الحلق صورة الخلّاق(١

تراه كان يتكلم عن نفسه بعد تلك العاصفة الهوجاء التي اجتاحته ? من يدري . ولكننا نعلم انه كان يشعر بانتقاص في روحه عن دعوتها الحقيقية ، وبالمسافة التي قطعها بعيداً عن الذي وحده يشبع النفس الجائعة . كان يحس بالفرق اللامنظور بين ما يشتهي حقيقةً وبين ما يتلهّى به . وكان هذا الاحساس يتفجر مرارةً وشكوى . مأساة ابي شبكه داخلية وعراكه اعمق من ان يكون حباً لامرأة يحاول ان يخلص لها بينما الاخرى تستغويه . ان قصته هي قصة ملاكٍ وحيوانٍ متعاركين في نفس انسان ، الاول يشدّ به الى فوق والثاني الى اسفل الجحيم . واذا كان لبّى الدعوتين ، فان الملاك كان له النصر في النهاية .

مراحله

في حياة ابي شبكه مراحل ثلاث رواها لنا شعره الصادق . الاوليان وعرتا المسالك ، ضيقتا الشعاب ، لقي فيهما من الالم الواناً وكاد اليأس الاسود يستولي لولا بقية من النور احتفظ بها بين نيران قلبه المشتعل . اما المرحلة الثالثة فهي درب صاعدة نحو القمة ، فيها الكثير من غصص الذكريات الماضية الموجعة ، وفيها على الاخص الكثير من القبول والارتياح والطمأنينة بعد اهوال الماضي وصخب لياليه .

مراحل ثلاث قطعها وما من رفيق له غير جراحات قلبه التي كانت تلتئم

١) افاعي الفردوس .

شيئاً فشيئاً على اوكسيجين الثلة . انه عاش في وحشة حتى قرب التي اعطاها قلبه الكبير . عاش في وحشة لان كل عظيم في الارض مستوحش منفرد يحمل عظمته عبئاً ثقيلاً على كتفيه . واذا كان اشرق ، قرب ساعة الرحيل ، قبس رجاء بين عينيه ، فلانه ، حتى في جحيمه ، احتفظ بشيء من القدامة ما نالت منها يد الغاوية .

وسترافقه على الطريق الصاعد ، وما هي مرافقة شخص وهمي ، بل قلب ينزف دماً احياناً ودموعاً اخرى وشيئاً من البلسم المعزي . واذا قدر لنا ان نكون من المخلصين نتعرف الى قلبنا مع ما فيه من عثرات وضعف واستسلام اثيم وما فيه ايضاً من نهوض بعد السقطة وشجاعة بين اهوال القفر المريعة .

في الجحيم

ابو شبكه في « افاعي الفردوس » يحترق في نار . انها يجتاز مرحلةً من اعنف مراحل حياته واقساها . ذلك القلب الفتيّ النابض بالحياة ، الذي يقابل الحياة بأنفة وكبرياء ، يُجرح في صميم انفته وكبريائه . وما شمشون الذي صوره لنا الا رسم له . هو العزيز النفس ، الأبيّ ، تستعبده دليلة اخرى . ويحاول ان يهدّم « دعائم الكذب الجاني » ويتفلت من القيود التي تكبل حريته :

هيكل الاثم لم أبعْ لك ذلي شبح الرقّ لم اسلك نيري (١

ولكنها ليست سوى محاولة مخفقة فالشاعر تعجّ في صدره « الشهوات الحمر » الطاغية ويصطخب احساسه بها . في قلبه نار الجحيم او بالاحرى قلبه هو الجحيم . فلا فرق بين الاثنين بعد ، كما قال احد ابطال دستويفسكي :

« أمليلة الفحشاء نارك في دمي فتضرمي ما شئتِ ان تتضرمي

انا لست اخشى من جهنم جذوةً ما دام جسمي يا سدومُ جهنمي (٢ »

وما ترى الجحيم ؟ أليس العجز عن العمل بجرية ؟ أليس الاسر في سجن

١) افاعي الفردوس .

٢) افاعي الفردوس .

تودّ لو تحطمه النفس وتقوّض دعائمه ؟ أليس هو تلك الغرفة الضيقة المنتنة حيث تنكمش النفس على ذاتها في فراغ مرعر . ذالك ما صوّره لنا ، في هذا العصر الفيلسوف الوقح حين قال على لسان احد ابطاله : « انا قشرة فارغة : لقد مصّت جوفي احدى الحشرات ولم اشعر[1] ... » واذاً فالجحيم هو موطن كل شمشون أكلت دليلة – النار داخله ، فاصبح سجين الفراغ والوعورة والوحشة الابدية . الجحيم سجن وعبودية لذات اثيمة :

«اصبح الليث في يديكِ اسيرًا فاطرحيه سخريةً للحمير
ان قاضي المتبدين لعبدٌ وقضاةٌ عزّزٌ قضاةُ المور....(١ »

وما ترى الجحيم غيرُ تلك الرسوم المتشنجة الالوان وذلك الخوف المستبد :

« أخاف في الليل من طيفٍ يسيل على موجات عينيك حينًا ثم يقترب
طيف من الشهوة الحمراء تنزله خمر الليالي وفي اعماقه العطب».(١

وما ترى الجحيم سوى تلك الصور المحمومة وذلك الكبريت المحرق الأكال المتعجر :

« في صدرك المحموم كبريتٌ اذا لعبت به الشهوات فجّر أضلعهُ ...
وأثرتِ حنجرة الفجور فاطلقتْ حممًا على نتم الجحيم مرقّمه
اغنيةٌ حمراء انشدها الخنى يزّقًا على اوتارك المتقطعه ...
بوِّر سترة الفساد بخدعةٍ نكراة بالحز الشهيّ مرقّمه ...»(١

وبعد ان عرفنا اخلاص شعر ابي شبكه لحياته ، ندرك ولو قليلًا شدة الألم الذي كان يعانيه . ومهما تكن شاعريته قد تسامت لما استطاعت وصفًا لتلك المشاهد المرعرة والصور الجهنمية التي جسّدها امام عيوننا بحروف نارية لو لم يكن احسّ بخطوطها ترتسم في قلبه . وكل من يقرأ قصيدته «القاذورة» يشعر بتلك الغيبوبة التي ضاع فيها ويحسّ بذلك الدوار المحموم الذي أسكر اعصابه وهدر في اعراقه المخمورة . واذا بالشاعر يطوّف قارئه في دنيا غير حقيقية في الواقع الملموس ولكنها حقيقية في قلب كل اثيم مجرم : انها جهنم،

(١ J. - P. Sartre. Théâtre p. 72

(٢ افاعي الفردوس .

تلك التي شاهد دانته على بابها هذه الكلمات المروّعة: « ايها الداخلون هنا ، القوا عنكم كل امل ». والشاعر اللبناني ، كالشاعر الايطالي ، قرأ الكلمات ذاتها :

قرأت عليه احرفاً خطّها اللظى ويروعك منها أثنان : سجن مؤبدُ
فطوّفت في غمرٍ من الليل والحنا يمربد والارجاس ترغي وتزبدُ
وللحمإ النالي نشيشٌ ورغوةٌ كأن الورى مستنقعٌ يتنهّدُ . . .
فثمة جرذان ترى النور آفةً فتؤثر او جار الظلام وتلبدُ . »(١)

وتتابع الصور الحالكة السواد ، صور « الجرذان » « والخفافيش » « والجرادات العطاش الفوارث » « والانسر » « والصراصير » وتلك « الارواح الممسوخة » وذلك « الضمير المدوّد » . فيحتل اليأس من شاعرنا المكان المعتّم فيودّع عذارى الحب البيضاء ويستسلم الى النيران التي تُحرق ولا تُفني :

«وداعاً عذارى الحب في جحيم الهوى جمالكِ محظورٌ وعدلكِ موصَدُ .
ألا اغلقي الفردوس في وجه شاعرٍ يضمّ ضمايير الجحيم وينشدُ .»(١)

هكذا كان شاعرنا يصطلي بنار ذاته ، بنار شهواته . ومن عجيب ما في تلك الشهوة انها تشتد لجاً وجوعاً كلما شبعت . وانها لتصبح كلباً كلما اكلت من فؤاد الانسان .

لو وقف ابو شبكه هنا ، لو استقرّ كل حياته في هذا المكان الموبوء لكان اعنف وأوجع شاعر عرفه الادب العربي . ولكنه ، لحسن حظه ، لم يستقر طويلاً في هذا الجحيم . لم تكن تلك السنوات القاسية على فؤاده سوى معبر شائك خَطِر دخل فيه ليخرج منه الى الحياة .

في المطهر

قلب ابي شبكه بناء متهدم إثر عاصفة هوجاء اجتاحته ولم يبقَ فيه من جمال العمارة المرصوفة ، عمارة النقاوة ، سوى خشبات محترقة :

لا تجي قلبي فلم يبقَ فيه من بناء الماضي سوى اخشابِ(١)

---

١) افاعي الفردوس.

ولكنه سوف يعارك امواج البحر المائجة ويظفر عائماً على احدى هذه الاخشاب حتى يبلغ المرفأ الامين ، حيث الهدوء والسلام . اجل انه مهّد للشر سبيلاً الى قلبه ، فدخلته بنت لوط وافعى الفردوس ، ودليلة الفاتنة ، فاصبح قاذورة تعجّ بالمطالب المتكالبة وتحرق النار الازلية التي اشعلها الحب السماوي في الانسان . ولكن بقي في قلبه مطرح مقدس ، هو حرمُ نفسه ، لم يسمح للفساد ان يدبّ اليه بظفر ومخلب ولم يرد ان تمسّه كف ملوثة بالعار . ومع انه اعطى شفتيه قرباناً على مذبح الخطايا ، فقد احتفظ بزاوية من قلبه سيّجها وحصّنها وخفر ساهراً على بابها ليله الطويل :

« يا ابنة الاثم هذه شفتايا فارشفي منها رحيقَ الخطايا
واعمري ما استطعت قلبي فقلبي لم يزل فيه من غرامي بقايا
وتوقي احدى زواياه لا تمشي فلي حرمة باحدى الزوايا
ان في قلبيَ البغيّ خيالاً من عفاف ما فاجرته البقايا
ان تكن حفنتي المدمّاةُ ملكي فخيال العفاف ملك سرايا » . (١

هذه الاشعار الخشنة التي ترد بعد قصيدة « الشهوة الحمراء » تحت عنوان « الخيال النقي » هي اصدق صورة للشاعر في تلك الحقبة من عمره التعبان . خيال من ذاك الذي يحوم بين عينيه الملتهبتين ? أترى هي « غلواء » النقية الطاهرة التي ما تزال تجيء قرب جحيمه فتفرش بساطاً من الامل في موطن اليأس الدامي ? لا شك في انه خيالها . فقد كان الشاعر يؤلف كتاباً باسمها ولكن قلبه ، كما يقول الاستاذ بطرس البستاني ، كان يجتاز ، ازمة عنيفة حالت دون ظهور الكتاب في وقته . اما طيفها فما زال يمرّ كالومضة في جفنيه فيتذكر النقاوة والطهر ويحنّ اليها .

وبدأت الامه تتطهر من جراثيم اليأس ، على ان هنالك حرقة ملازمة كانت ترافقه ، لان ماضيه اثيم يقرّ به ويعترف بانه جوّع نفسه حين اطعمها من الهوى الفاني ، من الشهوة التي تمسخ الشهوة الحقيقية ، هذه التي تطلب الله لتستقر فيه :

---

١) افاعي الفردوس .

رده عنوة الى كدر جامد حوّلت نفسي وسمت اهوى العالي
نبعت في الناس اهواء محرّمة وقلت للناس قولاً عنه نهاني (١

هي مرحلة العراك الدامي في نفس الشاعر : عراك الارادتين في الانسان الواحد : لقد تعرف اليه القديس بولس حين هتف : « من يخلصني من جسد الموت هذا . . . اصنع الشر الذي لا اريد والخير الذي اريد اياه لا اصنع[٢] » لقد تعرّف اليه القديس اغوسطينوس حين صوّر لنا عاداته السيئة تحاول ان ترجعه عن قصده واهتدائه : « وكانت صواحب الامس تشدّ بذيل جسدي اللحمي ، وتهمس بي قائلة : أتطردنا ؟ ماذا ؟ لن نكون معك منذ الآن وصاعداً ولن يحق لك ان تأتي هذا العمل او ذاك الى الابد ؟[٣] » وهذا راسين (Racine) الشاعر الفرنسي الناعم يعبّر لنا عن هذا القلق الداخلي وهذا التناقض الموجع . أما قال في « اناشيده الروحية » :

Mon Dieu, quelle guerre cruelle !
Je sens deux hommes en moi . . .

Hélas en guerre avec moi-même
Où pourrais-je trouver la paix ?
Je veux et n'accomplis jamais,
Je veux, mais (ô misère extrême !)
Je ne fais pas le bien que j'aime
Et je fais le mal que je hais !
O grâce, ô rayon salutaire
Viens me mettre avec moi d'accord ! . . . (٤

وابو شبكه ككل نفس كبيرة شعر بذلك الانقسام الداخلي الذي جرّح نفسه . يسمع صوت الله يناديه لينهض من الوحلة ، فيريد تلبية الصوت ولكن الخطيئة أسدلت ستراً على عينيه فكاد لا يبصر :

ترى مشيئتك العليا تناديني بثورة النار في تلك البراكين ؟

١) افاعي الفردوس .
٢) روميه ٧ : ١٩
٣) اعترافات ٨ : ١١ — ٢
٤) *Cantiques Spirituels*

رباه ! هل ينتهي حلمي ببارقة من اللهيب ويخبو الطين في الطين ؟
أعرضتُ عنك غداة القلب ضلّلني كأن شهوة قلبي عنك تغنيني
وحين أوقظتُ من سكر الهوى خجلاً بحثت عنك ، وكاد النار يخفيني . . . (١

وهكذا كانت تلك النفس الخاطئة الطاهرة تعارك ذاتها لكي تتفلت من القيود التي كانت تربطها ، فاذا بها تتصاعد رويداً رويداً من هوّة اليأس الى الامل وتسمو فوق دعوات اللحم والدم . انها نفس جائعة الى غير الخبز الذي لا يستطيع وحده ان يشبع الانسان .

في هذه الفترة من حياته الموجوعة ، تطلّع "ابو شبكه" ، لكي ينسى اوجاعه ، الى صباه ، الى قريته ، الى الفلاحين والحصادين والرعاة ، الى برهات المغيب المخيّم فوق « الزوق » ، فبدت له اضواء حبيبة واذا الحياة كلها لحن تبعث الطمأنينة والصحو في النفس المتألمة . وتمنى الشاعر لو يرجع الى ماضيه فينسى هموم الحاضر واتعابه ويدعو نفسه الى الصلاة لترتاح قليلاً :

اسجدي لله واصلّي فترةً ذكرى العذابْ . . .
واستعيدي ذكرياتٍ لأويقاتِ عِذاب
لم يكن ماضيكِ كالحاضر مرتاباً كئيب . . . (١

ويودّ لو يرجع لبنان كله الى الماضي الجميل ، الى السعادة التي غبرت ، حيث كان « الضمير الهني وراحة الوجدان » حيث :

ذاك النبيذ العتيقْ في الخابيهْ
وذلك الابريق يهش في الزاويهْ
والنرجس المتفيق في الآنيهْ
والريح لصٌّ مرقْ على رؤوس الحبقْ
كأنه ما سرقْ كأنه ما جنى
يا دهر أرجعْ لنا ما كان في لبنان . . . (٢

ويصرخ مستحلفاً الدهر بان يُرجع « الرفش والمعول والموقد والصاج

١) افاعي الفردوس .
٢) الالحان .

والحزن والفلاح الغادي والموسم المقبل وراحة البال » ، يطلب من الدهر ان يُرجع « لنا وجهنا » :

واسترجع الكهربا وكاذبات المنى -
يا دهر ارجعْ لنا ما كان في لبنان . . . (١

ويطول بنا الحديث ان اردنا ان نستخرج كل ما في « الالحان » من جمال وروعة . هنا ظهرت كل روح ابي شبكه النقية الناعمة الشفافة . كما أن العاصفة المفاجئة اذا هبّت بغتة على روضة تترك بعدها هدوءاً اعمق من الهدوء وصحواً أطيب من الصحو العادي ، هكذا نفس ابي شبكه بعد ان عصفت فيها تلك الزوبعة الاخرى العاطفية .

ويجيء بعد « الالحان » ، « نداء القلب » الذي هو كتاب البحث عن الحب الحقيقي . حقاً ان قلبه ينادي ، ينادي الوجه الطاهر الذي فقده في مطلع شبابه ، ينادي ، من بحيرة الالام ، حلم الجمال العفّ والرسم الذي شوّهت حية الفردوس صفاءه ونضارته . قصائد ابي شبكة في هذه البرهات تتفلّت شيئاً فشيئاً من الواقع ، لتجتمع بالحلم ، تترك الماضي لتتوجه الى المسكن العتيد ومغنى الهوى الحقيقي . قصائده في هذا العهد ، هذا بعض عناوينها : « الأنا » ، « الناسكة » ، « انت لي » ، « احبك » ، « الناسك » ، « العفاف المغوي » ، « استغراق » . اين هذه الكلمات الصوفية من من تلك العناوين ، ايام شقائه في الجحيم : « اقاذورة » ، « الافعى » « في هيكل الشهوات » ، « سدوم » ، « الشهوة الحمراء » ، « الطرح » .

لنتوقف قليلاً امام « الناسكة » ، انها خلاصة حالة الشاعر . لقد نسي او اصبح على وشك ان ينسى مطهره ، فيخيّل اليه انه على رابية ، يفتح نوافذ قلبه للحب ، ويوصد بابه دون الورى ويعيش في مغنى الجمال فترةً تنحل فيها كل الثورات القديمة الجامحة . وهناك في تلك « الفلاة الواعية » تمر يقظته روح ملائكية مرفرفة من عل فتنتشي احلامه من سحر وخمرة سرية . واذا

(١) الالحان .

به ، وقد بدأت الالام تضمحل ، يسمع الصوت الذي خنقت نبراته ضجات امسه القديم :

واسمع صوتاً كهمس عميق فاسمني انسم اعاقيه (١

على طريق النعيم

انه الصوت الذي ما برح يناديه ، من بين فحيح الافاعي ، الى المكوث في ارض الميعاد « الى الابد » . الصوت الداوي في قرارة كل وجدان ، وكم هم الذين يسمعون ؟ لقد سمعه ابو شبكه من بين ضجيج قلبه المحموم ونيران جسمه الطاغية . وما كانت حياته الا محاولة لتلبية ذلك الصوت الداخلي وهذا الهمس العميق . واذا توقفنا عند الكلمات فقط لا ندرك من نفس ابي شبكه الا القشرة الظاهرة ، ويفوتنا القلق النفساني . لقد كان قلقاً اجل . وهو من تلك النفوس الكبيرة التي تعجز الارض عن تحقيق رغائبها ، فلا التراب ينبت زهراً على تعطشها للعطر ، ولا القفر يمرع بالحوض فيروي ظمأها . ولهذا تنفلت من الواقع ، الى ما وراء الواقع ، من اليوم الى الزمان ، من الزمان الى الابدية ، من الفرد الذاتي الى الانسان الشامل . من النثر اليومي الى عالم الشعر الحقيقي ، لان الشعر وحده يستطيع ان يعبر عن الحقيقة ، وما الحياة اليومية الا كذب ومساومة على الحقيقة .

انه الهرب . الهرب امام الماضي ، الهرب من قسوة الزمان ، الهرب امام المدى المحدود ، امام الحياة ، الهرب صوب الابد ، صوب الله .

وسوف يهرب الى الله فيحتمي به من ضراوة الحب المفترس ، لا بل يبدله بحب آخر يفرش على الناس الذين اساؤوا اليه سماحة وغفراناً . وهكذا سنرافقه على طريقه الصاعد الذي سوف يشرف به على جنة النعيم . قد انتهى طور التردد والاضطراب بين ما يشد به الى اسفل من ذكريات مسعورة ، وبين ما يدعوه الى تسلق القمة حيث ينقى الهواء ويطهر الحب . لقد كان مخلصاً لدعوة الفوق فصعد رغم صعوبة الصعود ووعورة الطلعة .

١) نداء القلب .

ان آخر شعر من « نداء القلب » يطل بنا على تلك الأرجاء الفسيحة حيث الشاعر يحط انظاره :

« لم يكن ماضيّ في الحب سوى مطهر أفضى الى هـذا النعيم »

اين هو ذلك النعيم الذي يشير اليه ؟ انه امامه منبسط الفسحات مخضوضر الدروب . فليتلاشَ فحيح الافـاعي التي نفثتْ سمومها في جسمه ، ولتخمد النيران المحرقة ، نيران حبه القديم . اما الان فقد اشرقت على عينيه اضواء منهمرة من عل تنقي ارجاس لحمه ودمه وتشفي الجروح المعدوبة ببلسم جديد وحب ازلي جديد .

يقول القديس يوحنا الصليبي : « انسَ كل شيء قديم ، حتى النعمة القديمة التي أُعطيتها ، وامش الى الامام ، فان الله في الامام . » وابو شبكه سوف ينسى القديم ولياليه المحمومة ؛ وعندما تذكره ملهمة « الى الابد » بالماضي ، يجيبها : -

. . . . لو جئتِ لألفيتِ في ترابي جماجمْ
كان قلبي يا ليلَ يدفن ماضيه فلم تبتلي بتلـك المآتم
كان روحي إذ أقبلتْ يتعرّى الحقد فيـه وكان حبي نائم
فالأفاعي لم تبقِ الا سموماً في جناني وفي ضميري سائم . . .
حبنـا كان مطهراً لعذابي تمّ منه الى نعيم قائم

وفي هذا النعيم يودّ الشاعر ان يستقر ولا تبدله بعد ضجات الكائنات .
وما عنوان كتابة « الى الابد » غير الدليل الصريح على قصده المكوث في هذا النعيم . ولكن هناك ثلاثة اعوام قبل الوصول الى جنة الافراح . لقد سُمي العام الاول « الحلم الجميل » ترد من خلاله ذكريات الامس ولكنها لا تؤلم نفس الشاعر التي صُهرت في مطهر العذاب . اما العام الثاني فهو ، ما نستطيع ان نسميه « اللقاء » حيث يرفل الحاضر العذب بالاماني الطيبة التي لا اثر للألم فيها . والعام الثالث هو انفتاح على المستقبل السعيد حيث يود الشاعر كبطرس على الجبل يوم التجلي ، ان يصنع خيمة ويثبت هناك لانه شعر بغبطة البقاء على تلك القمة . ويبتدئ هذا العـام بنشيد يفيض رقة وعذوبة :

غن عدن وهم مكان مريبُ   شفيتْ فيه أعينٌ وقلوبُ
سكب الحبُّ رحمةَ الله فينا   فالسنى مائجٌ بنا والطيوبُ
كل اعراقنا السعيدة للايمان مجرى وللرجاء دروبُ
تتناهى بنا الى الغبطة الكبرى فنفنى بسحرها ونذوبُ !!

واذا بهما يتحدّيان صروف الزمان وشرائع الارض . ويعزمان على الاخلاص والوفاء المتبادل حتى ولو تجندت تلك الصروف والشرائع للحؤول دون ذلك . ويستنجدان الجمال الذي توطد البناء دعائمه في الارض :

ان بيتاً على الجمال بنيناه   لتأبى السماءُ ان ينهارا !!

وهكذا سيثبتان رغم انف العواذل والحساد ويستمد الواحد من الآخر قوة الاستمرار في ذلك النعيم :

يا حبيبي كما حييتُ سأحيا   ان بي من نعيمكَ استمرارا . . .
كلما غرّق الظلام عيوني   أطلعَ الحب في دمي انوارا !!

اعتادت الكنيسة الكاثوليكية ان تصلي على قبور الموتى وتقول : « الراحة الى الابد أعطهم يا رب » . وها هو يستريح في حبه الجديد . ولكن الموت قد بدأ يكبله وينشب في قلب الشاعر اظفاره القاسية وما كانت راحته سوى وحي للراحة الابدية المزمعة الذي نأمل ان يستفيق منها على حب آخر غير هذا الفاني الترابي الذي اضاعه .

ابو شبكه في « الى الابد » بلغ قمة شعره . فكأن حياته كلها ما كانت سوى اعداد لهذه المرحلة . « الى الابد » هو الكلمة الكبرى ، كلمة الحب الواعي ، الذي فاه بها قبل ان تخمد فيه شعلة الاحساس . وقلبه كان تلك البحيرة الصافية التي ، بعد ان عكرت مياهها اسراب من الجنيات البواهر ، عادت الى صفائها الاول . « الى الابد » هو صحو بعد عصف شتاءات شديدة ، وشروق بعد الخبط في ليل بهيم طال . . .

مركز « غلواء »

امّا « غلواء » فكانت تلك النجمة البيضاء التي لم تغوّرها الغيوم المتلبدة ، بل ظلت تشع من بعيد لتهدي الشاعر الى مسكن السلام . لقد بقيت ، في

١) الى الابد .

تبه المرو . ذلك « الخيال النقي » خيال العفاف والوداعة . انها « بياتريس »
التي قادت « دانته » من الجحيم الى المطهر فالنعيم ، او تلك التي ، في انياذة
فرجيل ، قادت « إينه » بين منعطفات مملكة « هادس » حتى اوصلته الى
مراتع السعادة . والانسان الحديث كالانسان القديم يشعر ، في تفتيشه عن
السعادة ، بان ليس غير الطهارة تستطيع ان تدخله الجنة ، تلك الطهارة التي
تجسمها الكنيسة في شخص ام الله وام البشر .

و « غلواء » هذه هي اجمل ما في نفس الشاعر ، لانها مثال الجمال الطاهر
الذي تطلبه نفسه حتى « في هيكل الشهوات » ومستنقع الفجور . فهو يذكرها
ويستنجدها على زحمة اشباح الرجس :

وحقِّ روحك يا غلوا ولو غدرت بيَ الليالي وأصمتْ قلبيَ النُّوَبُ
ان كنت في سكرةٍ اوكنتُ في دعرٍ ومرّ طيفك مرّ الطهر والادبُ (١

ولأجلها ما تنعم بالخطيئة واستسلم اليها بكليته ، وذلك ما جعله يأمل
بالنجاة ، ذلك ما نجاه حقيقةً :

اما انا ولو استسلمت اسيرٍ الى خمر الليالي ، فقلبي ليس ينشعبُ
قد أشرب الخمر لكن لا أدنسها واقرب الأثم لكن لست ارتكبُ (١

وغلواء كانت لقلبه الغريق في اللجة كخشبة الخلاص تعلّق بها فأوصلته
بعد جهدٍ مرير الى المرفأ .

لقد ابى ابو شبكه وهو بعد في الوحلة ان ينشر كتاب « غلواء » لانه
كان مخلصاً لذاته . فكيف ينشر كتاب النقاوة والطهر وقلبه مليء بسموم
الافاعي الحمر ؟ أتراه يكذب على ذاته وعلى الآخرين ؟ لم يكذب ابو شبكه .

امّا بعد ان وصل الى الطمأنينة واحس بان ليس بعد ما يهدده بالغرق فقد
كانت « غلواء » آخر مؤلفاته الشعرية . وكاني به بعد تعب المسالك ووعورة
الطريق نظر من اعلى قمته مستعيداً المراحل التي قطعها ذاكرًا يد السحاء
الملائكية التي رافقته فنشلته . فليس عليه الا ان يرسم ملامحها النقية ويتوارى
وراء حدود الآفاق .

١) افاعي الفردوس

احكام مشوّهة

رحم الله ابا نصيف وبرّد قلبه ومثواه . لقد كان من فطرته لا يحب ان يجادل احد بشعره ونثره فيضع بينهما فارقاً وتفضيلاً . وما ذاك الا لانه كان يشعر وينثر عن اخلاص ، فشعره ونثره يتقطران من معين واحد ، من قلبه . ولكنه قد مات ، فقالوا فيه الشيء الكثير وحكوا عليه اعتباطاً فشوهوا وجهه الشعري .

لقد قيل انه متأثر ببودلير . ولماذا يريدون ان يكون كل شعر تظهر فيه عضّة الواقع الجارحة ابناً لبودلير ؟ واذا كانت « زهور الشر » « وافاعي الفردوس » كلتاهما ترعان الصور الجانشة المضطربة التقاطيع ، فان بينهما فرقاً وسيعاً من حيث الاستيحاء . « زهور الشر » قصة اليأس والقلق المرير ، وهذا ما يجعلها خطرة تهدد اجمل ما في نفس الانسان ، تهدّد تذوّقه الحياة ، تهدّد أمله بالانهيار . اما « افاعي الفردوس » ، وان لم تقلّ خطراً عن اختها ، فانها تُسمعنا من مرة الى اخرى بعض صلوات تدل على ان صاحبها لم يستسلم تاماً الى مرارة القنوط . « زهور الشر » هي استقرار في اليأس ، و « افاعي الفردوس » هي عراك مع اليأس . الاولى حرقة مزمنة لا شفاء منها ، والثانية وجع عمّا قريب يزول . اين القائل :

... « L'espoir
Vaincu, pleure ; et l'Angoisse atroce, despotique
Sur mon crâne incliné plante son drapeau noir ».1)

من ذلك الذي استطاع ان يسمع صوت الله في بركة العذاب :

ادعوك والظلمة الحمراء تغرقني . . . .
فلم تملْ قلبك الرحمن عن المي وقلت : «تطلبني بين المساكين»

وبودلير الباحث عن الجمال ككل شاعر ما وجد لدى المرأة غير جمال خائن كاذب فتشاءم بها واذا به يستنجد مخيلته على خلق جمال فني حتى من

1) Spleen
٢) افاعي الفردوس

مشاهد القبح ويرسم صورة « الجيفة »[1] المتهرئة تعربد الديدان فوقها . وفي هذا الجمال القبيح كان يحاول ان يستقر رغم اشمئزازه منه . اما المرأة – دليلة في ابي شبكة فقد كانت افعى تستأجر جمالها للخداع :

ملفيه عنك المأجور وادفيه للانتقام الكبير
ان في الحسن يا دليلة افعى كم سمعنا فحيحها في سرير (٢

فاذا العصر كله سدوم اخرى فاجرة ترقع هـذا الخداع بجمال شهي ولكنه فاسد :

بؤر سترة الفساد بخدعة نكراء بالحز الشهي مرقّعه (٢

فبين بودلير وابي شبكه اذاً فرق في الاستيحاء رغم التقارب من حيث الاوصاف الصاخبة المتصادمة التقاطيع ، الناشزة الرسوم .

وما ابعد ايضاً ابا شبكه عن الرومنطيقية التي هي مرضٌ محبوبٌ في القلب ومغالاةٌ في الواقع . فابن « الزوق » لم يعرض قلبه عن رضى وقبول ، بل كان يودّ الشفاء من الميكروب.. أما هتف مرةً :

أرجع لنا ما كان يا دهر في لبنان
كانت لنا احلامنا والمنى
وكان صفو الزمان
كان الضمير الهني من كثرنا المزمن
وراحة الوجدان . . . . .

أما طلب من الدهر ان يُرجع
الى القلوب اليأس الى العيون الجمالْ
وعزةً للنفس وراحة البال ...(٣

ولم يغالِ في واقعه بل سرده علينا باخلاص مع ما فيه من ثورات لحم ، وتشنج عصب ، ونزوات دماء ، وغرق في الاثم ، ومع ما فيه ايضاً من

١) Une charogne
٢) افاعي الفردوس
٣) الالحان

اطمئنان الى النقاوة وتكفير عن الخطيئة ، ومعاندة للفؤاد الجامح . وان يكن فيه شيء من الرومنطيقيين ففي ذلك الاحساس الملتهب الذي جعله كل ساعة عرضةً لكل عاطفة وعاصفة .

لم يتغنَّ ابوشبكه بالقبر وبالراحة المشتهاة في جوانبه كما تغنى الرومنطيقيون ولم يحاول ان يطمئن الى الذكرى من حيث هي ذكرى يجتليها فيتخذها ينبوعاً لشعره وشحذاً لقريحته ، بل كان لا يعرض لها إلا إعداداً للقاء او الما من الفشل فيه . واذا كان ارتاح الى كل ما هو ديني ، موضوع الرومنطيقيين المزيف ، فلأن نفسه كانت في اعمق قرارتها دينية لا تهدأ ولا تستقر الا في لفظة الله وفي كل ما يذكرها به على الارض من شموع مضاءة ، وقباب معابد ، ورنين اجراس ، وتمتمات شفاه في الصلاة .

كفاه انه اخلص لواقعه لكي لا يكون رومنطيقياً بما في هذه الكلمة من ابتذال .

فليس فيه من الرومنطيقية الا بقدر ما في الرومنطيقية من تعبير عن خلجات الانسان . وانه انسان قبل ذلك ، خاضع لسنة التراب التي اقضت مضجع رسول الامم « فخاف ان يرذل وهو الذي بشر الاخرين » ، انسان مجبول من لحم ودم واعصاب ، فطوراً يطغى الروح على الجسم فيعذب الكلام ويطهر النفس ، وتارة يفرض الجسد سلطانه على الروح فيتمرغ الى السقطة كالملاك الهاوي ، ولكنه لا يبرح « يتذكر دوماً سماءه » كما قال لامرتين .

وظن البعض « انه مات قبل ان يقول كلمته الكبرى[1] . » وانه لزعم أجوف كأن ابا شبكه ما كتب « الى الابد » ، وكأنه ما اراد ، بعد تلك التلألات ، ان يستقر دون تبديل في عالمه الذي سماه « مغنى الجمال » ، وكأنه ما عبّر لنا عن وفائه الذي شاءه ابدياً :

يا حبي سيلاً الحب سجني فليشيدوا الحصون والاسوارا

---

١) دراسات وذكريات ص ٥٠

رسابنيك فيه جسماً وروحاً وحناناً وعفةً ووقارا
أبوسع السجون ان تحرم القلب رؤاه وتحجب التذكارا (١

لقد كان على ابي شبكه بعد ان كتب « الى الابد » واتبعها « بغلواء » إقراراً بجميل الملاك الطاهرة التي نشلته من الهاوية ، كان عليه ان يتوارى ، والا لسمعناه يردد علينا كلمات الحب ذاتها .

كلمته الكبرى تلفظ بها بعد ان حاولت شفتاه طويلاً ان تتمما مقاطعها ، فاذا المقاطع اولا « فحيح » لم يرضَ عنه ، واذا هي بعد ذلك « نداء » يبحث عن مجهولة :

جمالك هذا ام جمالي ؟ فانني ارى فيك انسان جميل الهوى مثلي
وهذا الذي احيا به ، انت ام انا ؟ وهذا الذي اهواه شكلك ام شكلي ؟ (٢

وسيعترف فيما بعد انه كان يبحث عن الوجه المنتظر :

كم سمعت الفضاء يخفق حولي أترى كان يلتقي طيفانا ؟
كنتِ بي قبل ان اراك بعيني فدمي كان يرتوي احيانا (٣

الى ان اهتدى اخيراً الى احدى الواحات فاستقر فيها ولن يفارقها الى غيرها ، فهو من تلك النفوس السخية التي ان اعطتْ لا تملك بعد العطاء شيئاً غير القدرة على تجديد العطاء . وهكذا لم يبقَ عليه الا ان يسامح الذين أرجفوا بحقه وحقها :

نحن يا ليلَ اسعد الناس فلنغفرْ لهم كلَّ ما يقولون عنا (٤

وأن يخاطب قلبه ، تلك الشعلة التي سوف يحجبها الضباب ، فيقرّ بان « غلواء » هي التي أوحت اليه آخر كتبه :

لاجل غلواء واجل العذابْ ، كتبتِ لي في الحب هذا الكتاب ،
يا شعلةً محجوبةً بالضبابْ ،
. يا قلبي . . . . (٣ .

وهذه كانت اكبر كلمة قالها ، لانها تختصر حياته كلها .

لم يكن ابو شبكه لمدرسة معينة من مدارس الشعر ، فقلبه كان مدرسة شعره ، « جرحه وسقى منه قلمه[٢] » . وكل ما ظهر في آثاره ، من عنف

١) الى الابد ٢) نداء القلب ٣) الى الابد ٤) غلواء

احياناً ومن نعومة ورقة احياناً اخرى ، تلقَّنه في تلك المدرسة . وكثيراً ما كانت الامثولات قاسية صعبة .

فاذا كان فيه من لامارتين وبودلير — وهذان الشاعران على نقيض — فلأنه اختبر في نفسه القلقة متناقضات عديدة وما كتب الا عن اختبار شخصي صادق . ولذلك فاني اعتقد انه اقرب الى موسه (Musset) منه الى غيره . ومع ان الميكروب كان ذاته ، فقد كانت صحته اجمالاً احسن من صحة زميله . ولكن هذا ما منع ان كانت قسمته من الحياة ثلاث سنوات اقل من قسمة صاحب « البدالي » . رحمهما الله .

الشاعر المسيحي

لقد كتب الياس ابو شبكه في مذكراته (١٠ شباط ١٩٣١) هذه العبارة : « صرفت ساعتين من مساء اليوم في التأملات ... وبكيت[1] » . لماذا بكى الشاعر؟ لا شك في انه بكى حياته تهرق كل يوم في غير السبيل الذي اراد ان يختطه قلبه الكبير ! لقد بكى من حرقة ولهفة لان نفسه المتطلبة غذاء غير غذاء الحب المجوّع كانت تلجّ وتسرف في تعذيبه ! بكى لأن الدمعة نعمة ، ولأن الدمعة راحة ، ولأن الدمعة توبة ، ولكنه لم يكن بعد قد تاب ، فامامه طريق وعر وسنوات عديدة سوف يصرفها بغير التقوى والعبارة . وكانت دمعته في مساء العاشر من شباط سنة ١٩٣١ عجزاً ! عجزاً عن التفلت من الكبول التي تقيده ، عجزاً عن إشباع روحه من غير ما تلهى به حتى الان من حطام واصداق فارغة . بكى لانه عزم على قطع العلاقة مع ربه فقد كلفه ذلك ساعتين في التأملات ودمعة .

وبعد ثلاث سنوات ، في اول نيسان ١٩٣٤ ، كتب بين مذكراته هذه العبارة الثانية : « حضرت اليوم ذبيحة القداس بعد ان هجرت الكنيسة ثلاث سنوات . لا اعلم اي دافع يردعني عن القيام بالواجبات المفروضة على المسيحين[2] ... »

١) الياس ابو شبكه : دراسات وذكريات . ص : ١٩٨

٢) دراسات وذكريات ص : ٢٠٤

اما نحن فنعلم ما كان ذلك الدافع . لقد كان اخلاصه ، ذلك الاخلاص الذي جعله يسير كل حياته عزيز النفس على حرمان ، ملوّث القلب على طهارة ، وفياً حتى الجود بالروح ، حتى الدماء . ويتابع في مذكراته قائلاً : « ففي نفسي عوامل متناقضة ، منها يحاول إبعادي عن المراسيم الدينية ، ومنها يحاول تقريبي منها[1] » .

اما تلك العوامل التي كانت تبعده عن مراسيم دينه فاولها هو ايضاً ذلك الاخلاص وعدم الرياء . كان يعلم ان الحياة التي يعيشها لا تتفق مع متطلبات المسيحية التي تفرض الاستقامة في حياة القلب . وابو شبكه شعر بان قلبه زاغ وكفر ، ولهذا لم يشأ المداهنة وإظهار التدين والورع .

واخلاصه ايضاً لدعوة قلبه السامية كان من العوامل التي كانت تقرّبه من دينه . لقد قيل ان كل شاعر حقيقي يؤمن بالله ولا شك في ان ابا شبكه كان شاعراً حقيقياً . وكان عليه ان يلبي صوت ايمانه بالله . وقد عرفناه سخياً حتى في الخطيئة ، ان تورّط فيها فلكي يصل الى اعماقها ، فيستطيع ان يقول مع اغوسطينوس : « يصعب عليّ ان اكون في الوسط ، بينَ بينَ » . واذا به من جهة يحاول ان يكون مخلصاً لنداء ضميره ، صوت الله فيه ، ولكنه ، من جهة اخرى ، كان يطيع نداء الفؤاد المنحرف . وهكذا بدأت المأساة في نفسه .

كان ابو شبكه شاعراً مسيحياً لن نحكم عليه بقولنا ، كما قيل عن « فيدر » (Phèdre) بطلة راسين ، انه مسيحي نقصته النعمة لاننا نعلم ان النعمة لا تنقص احداً ، بل هي بالاحرى تتبع بالحاح كل انسان . نقول انه مسيحي لانه لم يرضَ ابداً عن قلبه الجامح الذي قوي على روحه . ومن يقرأ سطوره يشعر بذلك القلق الداخلي المستمر الذي كان يهيب به الى الاقلاع عن كل ما كان يجعله احطّ منزلةً من مسيحيته . وكل شعره عابق بتلك الاجواء الروحية المسيحية ، فهي تارةً قاتمة الالوان من جراء الإثم وطوراً مستقرة صافية . وكأن كل تذكار ديني يعود الى مخيلته كان يغرس في نفسه وروداً من الامل الاخضر فيشيع الهدوء فيها وتغمر السكينة والطمأنينة تلك النفس التعبة الموزّعة بين الدعوات العديدة المتّبعة . واذا كان اروع شعره في تلك

(١) دراسات وذكريات ص ٣٠٤

الاوصاف الصاخبة المضطربة اقوى اثر الكامنة في جسمه النـاري ، فان شعره الأكثر تأثيراً ووقعاً في القلوب والاقرب اليها ، هو في تلك الابيات الناعمة الخفيّة الصلوات ، الشجية الاصوات ، حيث تصطف الكلمات كأنها عذارى طاهرات حول القافية الملكة التي تناديها . من يستطيع ان يمحو من ذاكرته تلك الابيات الهادئة التي تمشي العذوبة والصحو بين مقاطعها ، كأنها حقيقةً صحو « المغيب » وعذوبة انسداله فوق ضياع لبنان :

اسمي الاجراس في قبّة دير الراهبـــات
يحمل الوادي صداها للنفوس الراهـــدات
فيه اصوات حنـانٍ وبقـــايا زفرات
صدّقها راهبات الدير قـــدام الصليب
اسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيب (١)

ولنلاحظ هنا استعمال حروف العلة وخصوصاً الالف التي تعطي الصوت مدىً متصلاً وتغمر الابيات بموسيقى عذبة وحنان واشواق مجنحة الى ديار مجهولة الحدود .

واتمثله غارقاً في بحران تأمل عميق ، على صخرة في « الذوق » يسمع جرس كنيسة عينطورا يرن في الوادي حاملاً الراحة على رناته المتقطعة بين الكروم والغابات ، ثم تنحل متلاشيةً مع آخر انفاس العطور ، مع آخر نفس في شبابة الراعي ، وتموت كأنها ذلك الشعاع الاخضر ، بلون الأمل ، تلفظه الشمس عند الغروب لكيلا يحتضر الامل في القلوب . ويرى بعين الخيال راهبات حفر التقشف تجعُّداتٍ في وجوههن جاثياتٍ في معبدٍ مهجور الّا من نفثاتهن يحمّلنّ المصلوب اوجاع الارض ويساقطنه نجاوى الحب الملتاع المذيب .

واعتقد ان الاجراس كان لها وقعٌ خاص في نفس ابي شبكه فكثيراً ما تتردد اصداؤها في شعره . ولا عجب أليستْ الاجراس هي تلك الدعوات الى المجهول حيث يتيه حلنا وحيث تودّ نفس الشاعر المعذّبة ان تستقر منفلتةً من هموم الوجود واتعابه ؟ أليست هي التي تذكّر الانسان باجمل ساعات النهار : الشروق والغروب ؟ فكأنما دقاتها المضحة امل بالحياة ورنينها في العشية استسلام لضجعة الموت ، مفزع الشاعر التعبان . أليست نفس الشاعر الحساس

(١) الألحان .

رنة خافقة تلتقي بذاتها متى سمعت رنة أخرى مادية اجل ولكنها اقل الاشياء مادية ؟ كذلك نفس ابي شبكه كانت تستيقظ وتتصل في تلك الرجعات المرنّة المديدة ، بحقيقة سامية ، بالله الهامس في قرارة الضمير :

ورنة صدى الاجراس في كبد الضحى يهيب بارواح العباد فتسرع...(١
اسمي الاجراس من قبة دير الراهبات...(٢
اسمع في الوادي رنين الجرس يذيب روح الله في المتبين...(١
وذكرتُ أخيلة الماءْ ورنة الاجراس في الهواءْ...(١
وكانت قبة الجرس القيمهْ على عمدي كنيستها القديمهْ...(١
اسمع اجراسك من بعيد فهي تناديني الى السجود (١

وهكذا كان صاحب « الى الابد » يصغي الى الصدى الذي يهيب به ولا يسرع فيسي قلق الروح مضطربها . وهناك في داخله وحدة منفرطة الحلقات يهم بان يعقدها فيخفق وينطوي من جديد على الم جديد . وما يستشعر بشيء من الراحة الا حين ينسى ذاته ، ساعة تغمره اسرار الدين ، ذلك المنبسط الرحب حيث ترتاح النفوس الكبيرة .

ما ترك ابو شبكه دينه حتى في ساعة الاهمال والعصيان . ولو اراد ذلك لما استطاع . فانه قد عاش في بيئة مسيحية . الاديار حوله مزروعة على كل ربوة والكنائس ترفع قبابها في كل ساحة قرية ، والثياب السوداء يلتقي بها على كل درب ، وتأثير الآباء اللعازريين يهيمن على افكاره وثقافته ، وما يبرح طيف رئيسه القديم الاب سرلوت يواكبه فيبدو مثالاً يجمع الشعر والدين معاً ، شعراً قوياً وتديناً عميقاً .

الى ما هنالك من حفلات دينية حضرها وما زال عبير المباخر يعبق في انفه وانغام الطقوس تتردد في طوايا فؤاده :

الناس في المتكف المقدس يبلون قد بخور الأنفس
وللنفوس صوتها المسموعُ ،
وأذرعُ المجامر المرتجفهْ كأنها مسارج منكفئهْ
جفّتْ على قممها الشموعُ

١) غلواء . ٢) الألحان .

وصوات تكمن التعبير ... بـديـب روح الله في النفوس
قال بصوتٍ خافتٍ . « ابدِ ... أنزلْ على شعوبك الغفرانا . »١

ذلك الغفران الذي كانت تطلبه نفس الشاعر لتشفى من اوجاعها. فكم مرةٍ أسمعنا ذلك النداء المحموم طالباً العفو عن آثامه ، وما تلك «الصلاة الحمراء» التي كتبها وتلك « الدينونة » سوى الدليل عمّا كان يحزّ في نفسه من الندم وما يتخوف منه ، ساعة تظهر السيئات امام العيون . واذا به يصرخ من اعماق نفسه المجروحة :

ربـاه عفوك ! اني كافرٌ جانٍ ... ٢

قيل عن تأثير التوراة على شاعرية ابي شبكه . ان ذلـك لصحيح . فاذا كان الشاعر ذكر « سدوم » « وشمشون » « وحواء » « وعذاب الضمير » فلانه كان حقيقةً متأثراً بتلك الفصول التي قرأها وخصوصاً لانه كان يجد لها صدى في نفسه التي فجرتْ مرةً كسدوم ، وكشمشون زاغت عن دعوة الله القدّسية وكحواء تطفت الثمرة التي نهى عنها الخالق . وبما ان العهد القديم من الكتاب المقدس هو ، نوعاً ما ، تاريخ الانسان المطرود من جنة النعيم ، كان المعبّر عن تاريخ ابي شبكه ، ذلك الشاعر المطرود من جنة الافراح ونعيم السلام ، ولكن الى عهد . لانه بعد ان رجعت الطمأنينة الى نفسه ، أطبق السفر القديم وفتح صفحات الجديد حيث وجد الغفران يتقطر على شفتي الشافي الاكبر ، مبرّر الخاطئة ومهدّم قبور الرياء الكلسية التي يمشي الناس فوقها ولا يعلمون . هو عهد « الى الابد » « وغلواء » حيث تنزل عينان حبيبتان من سماء الحب منّاً وسلوى فوق صحراء الشاعر . لقد ادرك ابو شبكه في هذه الاونة ان الالم هو الذي يقود الى الله وان « الذي يجهل الالم لن يتعرف الى الحب » كما قال نوڤاليس (Novalis) ذلك الكاتب الألماني المتشائم . لقد ادرك ان ما من احدٍ يستطيع ان ينعم « بشعاع الله » ما لم يصعد الى قمة الالام :

١) غلواء .
٢) افاعي الفردوس .

من ليس يرقى ذروة الجلجلة ولم يسمر في الهوى أنمله
ويرفع العلقم والحنظل له ،
من يعرف السمر على المخمل ، ولا يذوق البؤس في الاول ،
لن يعرف ، العمر ، شاعر الاله . . . !

ان آخر شعر ظهر لصاحب « الى الابد » كان هذا :

وشفيت غلواء من اوهامها لكنها لم تشف من آلامها !

اما اوهامه هو فكانت تلك المراحل المظلمة التي قطعها ، وتلك الضلالات التي انخدع بها حين اعترم الحب . لقد شفي اخيرًا منها . وقد بقيت الالام فلم يشفَ منها ، وستقوده وهو في ريعان الشباب واخضرار العمر الى ظلمة الرمس الباردة وهناك استراح قلبه التعبان الراحة الكبرى في غفوة ما استفاق بعدها الّا على غير الصحارى الموحشة ...

عبرة

ان ابا شبكة باختباره الوجيع لحالة تنزلق اليها الارجل المديدة ينيرنا في طريق هفواتنا وضعفنا . واذا كان من امثولة تتخذ من شعره فهي توجيه الى درب الخير والادراك ان ما من شبع الا بالله الذي يستطيع وحده ان يملأ فراغ قلوبنا ولياليها . لا شك في انه ليس بمثالٍ يُقتدى به في الحياة لأن الألم ظفر بحياته وسحبها ، وما كان ذلك الالم سوى نتيجة السقطة التي جرّعته المرارة . ولكن عناصر الخير كثيرة في شعره للذين يفهمون وللذين لا يتوقفون عند الاوصاف التي قد يضطرب لها القلب الفتي ، بل يتعدونها الى ذلك العراك النفساني المتواصل بين ما كان يشدّ به الى التراب وبين ما كان يدعوه الى العلاء . ولا شك في ان امام كل انسان مثالًا للانسان الكامل يسعى الى تحقيقه . وما دام لا يصل اليه فهو قلِقٌ تَعِبٌ ينطوي على ذاتٍ مقروحة مهشمة . كل انسان يسعى الى تحقيق ذاتٍ عظمى كامنةٍ فيه غير ذاته الواقعية الكاذبة ، أكان فيلسوفًا او شاعرًا او سياسيًا او عاملًا . تلك هي قصة القلق الوحيدة التي ترويها لنا العصور منذ علّقها الله بحبال واهية فوق

١) غلواء .

هوة الابدية . القلق يسكن في جوف العامل الذي يقتلع الحصى على الطريق في الهاجرة كما يمر دماغ الفيلسوف السابح وراء تأملاته . القلق يزحف الينا ويدب في قلوبنا نفي كل خليقة عاقلة له مجال وغمرة عراك . ولذلك ليس من راحة لانه ما من خلاص من براثن القلق الضارية طالما رأسنا يتأرجح بعد في الهواء ويحاول ان يقطع الاجواء البعيدة بينما هو عالق برجلين مقيدتين باغلال التراب الثقيل .

اما الشاعر، صدى المسكونة وكاهن الانسانية الحامل اتراحها وافراحها ، يأسها وآمالها ، جحيمها ونعيمها ، فيشعر اكثر من غيره بما يحدث في نفس كل انسان . ولذلك فالحزن والحرقة قسمته لانه يختبر بحس ارهف من حواس اخوانه العاديين ، يختبر في داخله إخفاق البشرية لدى محاولتها الوصول الى بشريتها المثلى . وان تلك المحاولة مخفقة دائماً . ولم يكن من انسان زعم انه حققها غير نيتشه (Nietzsche) . ولكنه جنّ لانه اراد ان يحمّل طبيعته اكثر مما تستطيع ان تحمل ، اراد ان يقفز فوق ظله فهوى في فراغ سحيق .

وما كان ابو شبكه الا احد المحاولين ردم الهوة التي تفصل بين ما كان حقيقة وبين ما كان يريد ان يكون . فاذا به بعد تردد وتيهان يشرف على الربوة المطلّة على ارض الميعاد ، وكموسى لم تطأها قدماه بل نظر اليها من بعيد . ابو شبكه ككل انسان على الارض لاحت له السعادة فتنعّم قليلاً بخيالها العابر ولكنه لم يمتلكها . وما اجمل ان نأمل انه بعد غفوته الاخيرة استقر في سمائه الى الابد . ولقد اخبرنا الاستاذ ميخائيل نعيمه انه في ليلة قضاها عند ابي شبكه « شاهد مضيفه يستوي في سريره ويصلي بحرارة المؤمن[1] . » هي تلك البرهات القصيرة في عمر الشاعر التي تشجعنا على هذا الامل . ولقد اطبق عينيه هو على هذا الرجاء المعسول النير المخذول بعد ان هتف بكلمات تقطّعها حشرجة الموت المقبل ، تلك الكلمات التي تتصاعد من صدر كل انسان غريب عن وطنه الاول :

« من الاعماق صرخت اليك يا رب ! »

---

(١) دراسات وذكريات .